الشفاهية والكتابية*

عرض وتحليل / عصام أحمد عيسوى

معيد بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

جامعة القاهرة.

يقدم هذا الكتاب للمرة الأولى أفكاراً جوهرية فى مجالات معرفيه متعددة تشمل الأدب، والنقد، والتاريخ، والفلسفة، والاجتماع، والمكتبات، والوثائق، وقد تم تناول هذه الأفكار من خلال محور أساسى هو التقابل بين العقلية الشفاهية والعقلية الكتابية، وكذلك عملية تحويل الكلمة إلى تكنولوچيا.

تكشفت فى السنوات الخمسين الماضية الفروق الأساسية فى طرق تحصيل المعرفة والتعبير بالكلام بين الثقافات الشفاهية الأولية والثقافات عميقة التأثر بالكتابة ولذا فقد جاء موضوع هذا الكتاب ليوضح تلك الفروق الظاهرة والباطنة بين الشفاهية والكتابية، حيث استخدام المؤلف لذلك خطين متوازيين سار عليهما وهما:

أولا: الفكر وصورته اللفظية فى الثقافة الشفاهية.

ثانيا: الفكر والتعبير فى صورتهما الكتابية، من حيث إنبثاقهما من الثقافة الشفاهية وعلاقتهما بها.

إن الكلمة المنطوقة، وسط كل العوامل الرائعة التى تتيحها الكتابة، لا يزال لها حضور وحياة، ذلك أن كل النصوص المكتوبة مضطرة بطريقة ما، مباشرة أو غير مباشرة، إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعى للغة، كى تعطى معانيها.

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت، لذلك فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغنى عن الشفاهية.

* العنوان الأصلى للكتاب:

Orality and Literacy: The Technologizing of the word

أونج، والتر ج. الشفاهية والكتابية/ تأليف والتر ج. أونج؛ ترجمة حسن البنا عز الدين. ـ الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤. ـ ٣٦٥ ص (عالم المعرفة؛ ١٨٢).

ومن هذا المنطلق فقد كانت ـ ولا تزال ـ النصوص المكتوبة تلح على اهتمام الباحثين بصورة جعلتهم ينظرون بشكل عام إلى الابداعات الشفاهية بوصفها تابعة للإنتاج المكتوب، أو بوصفها غير جديرة بالاهتمام البحثى الجاد.

ولذلك فإن أهمية هذا الكتاب تأتى من كونه يبحث أولاً فى العلاقة بين الشفاهية والكتابية، مع التركيز على الكتابة التى ضمنها الكاتب الدكتور والتر ج. أونج (الطباعة) بإعتبارها أختراعاً أرتبط ظهوره بالكتابة، ثم (الإستخدام الالكترونى للكلمة والفكر) على نحو ما يتمثل فى الإذاعة والتليفزيون وعبر الأقمار الصناعية.

ولقد اشتمل هذا الكتاب على تمهيد ومقدمة وسبعة فصول، فكان التمهيد الذى أعده المترجم الدكتور حسن البنا عز الدين ـ محدداً لموقع الأدب العربى من خلال النظرية الشفاهية، وهى دراسة نظرية تناول من خلالها توضيح النظرية الشفاهية أو (نظرية الصيغ الشفاهية)، كما تناول أيضا عرضا للآراء العربية والعالمية فيما يتعلق بالعلاقة بين الشفاهية والكتابية من خلال موضوعات مثل البحث الفيلولوچى، والأنثروبولوچيا، ثم موضع الأدب العربى من النظرية الشفاهية، حيث يؤكد د. حسن البنا (المترجم) أن هذه النظرية لم تطبق فقط على الأدب العربى، ولكنها طبقت اكثر من ذلك على الآداب اليونانية القديمة، والأنجليزية القديمة، والأسبانية وغير ذلك من اللغات.

ثم يبدأ الكتاب الفصل الأول الذى حمل عنوان «شفاهية اللغة»، والذى حاول المؤلف أن يثبت فيه ان الكتابة واللغة يرجعان فى أصلهما إلى الشفاهية، وهى الفكرة المحورية لهذا الفصل الذى حاول المؤلف أن يدعمه بما جاء فى علمى اللغة التطبيقى، والاجتماعى ومدى تأثيرهما على نظرية الشفاهية.

أما الفصل الثانى فكان بعنوان «الاكتشافات الحديثة للثقافات الشفاهية الأولية» وفيه يعرض للآراء التى تعرض لها مفكرو الغرب فى العصر الحديث.

أما الفصل الثالث فيعرض لـ «بعض الديناميات النفسية للشفاهية» والتى جاءت من خلالها فكرة. أن الكلمة المنطوقة يكون لها قوة وأثر واضح على الشعوب، وخاصة الشفاهية منها، موضحاً أن دينامية الشفاهية تأتى من ذلك الصوت الذى يخرج من بين شفاه البشر ـ بطريقة دينامية ـ ليعبر عن الكلمات المراد توصيلها والتعبير من خلالها عن المعنى او الفعل المراد حدوثه.

كما تناول المؤلف فى هذا الفصل بعض السمات الأخرى للفكر والتعبير القائمين على الشفاهية، وهذه السمات هى بعض من تلك الخصائص التى تميز الفكر والتعبير المؤسسين على الشفاهية والتى تختلف عن الخصائص المؤسسة على الطباعة والكتابة، وقد أوضح المؤلف أن أسلوب الفكر والتعبير يميل فى الثقافة الشفاهية إلى أن يتسم ببعض الملامح المحددة له مثل (عطف الجمل) بدلا من تداخلها وذلك باستخدام (الواو الابتدائية) فى بداية الفقرات المكتوبة، وكذلك الأسلوب التجميعى فى مقابل التحليل، وهو ذلك

الأسلوب الذى يرتبط بسمة التجميعية ارتباطاً وثيقاً اعتماداً على الصيغ لتقوية الذاكرة، إذ أن الأسلوب الشفاهى يأتى فى عبارات متوازية سواء كان ذلك فى جمل بسيطة، أو مركبة، أو نعوتاً ـ وذلك على حد قول المؤلف.

كذلك فإن الأسلوب الشفاهى يعتمد على الإطناب الذى يظهر واضحاً جليلا من خلال فن الخطابة.

أضف إلى ذلك، بعض الملامح الأخرى المحددة للثقافة الشفاهية، والتى ذكرها المؤلف فى كتابه ليبين الفروق بين استخدام كل منها فى الأسلوب الشفاهى والأسلوب الكتابى.

أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان (الكتابة تعيد بناء الوعى)، وقد اعتمد المؤلف فى هذا الفصل على ما أورده فى الفصول الثلاثة السابقة، حيث اعتبرها كمقدمة يتمكن القارئ من خلالها أن يتفهم عالم الكتابة، وكذلك فهم ماهيته وماهية الكائنات البشرية من الناحية الوظيفية التى تعتمد على تكنولوچيا الكتابة.

لذلك فقد تعرض المؤلف لتكنولوچيا الكتابة مبتدئاً بما فكر فيه «أفلاطون» من حيث ان الكتابة تكنولوچيا خارجية، دخيلة، على نحو ما يفكر فيه كثيرون اليوم فى الحاسب الآلى.

كما تعرض فى هذا الفصل إلى الكتابة والخط مؤكداً على أن «الوثائق لم تكن توحى بالثقة فورياً» وكان لابد من إقناع الناس بأن الكتابة قد حسنت طرق الحفظ الشفاهية القديمة بدرجة تكفى لتبرير كل التصرفات والتبعات المرهقة التى تتطلبها».

فمنذ البداية كانت الوثائق تعامل معاملة الهدايا الرمزية مثل السيوف، ولذلك فقد كثر تزييف الوثائق، وكان لابد من التعرف على تلك الأخطاء التى وقع فيها المزيفون لإثبات صحة ما هو صحيح منها، والتعرف على ما أصابه الزيف، وذلك «من خلال الإجراءات الإقتصادية والقانونية التى هى شفاهية فى الأساس».

أما الفصل الخامس الذى عرض فيه (والتر ج. أونج) للأفكار الأساسية عن الطابعة وعلاقتها بالشفاهية والكتابة، فقد جاء ليؤكد على أن التناول السمعى ظل يهيمن على النص المرئى المطبوع بالرغم من ترسخ القواعد الطباعية بمرور الزمن.

وقد وصل المؤلف فى نهاية هذا الفصل إلى النتيجة التى أوجزها فى قوله بإن «الطباعة تضع الكلمات فى الفراغ بصورة أكثر صرامة مما فعلته الكتابة فى تاريخها كله، فعلى حين تحرك الكتابة الكلمات من عالم الصوت إلى عالم الفراغ المرئى، فإن الطباعة تحبس الكلمات فى موضعها داخل هذا الفراغ، والتحكم فى الموضع هو كل شئ فى الطباعة».

وفى توضيحه لهذا الجزء المتعلق بالطباعة، حاول المؤلف أن يتخذ الفهارس الأبجدية للمخطوطات كمثال يتضح من خلاله تأثير الطباعة فى حياة البشر، ولذا فقد وصف الفهارس الأبجدية بأنها تدل على تحرير الكلمات من الخطاب وتثبيتها فى الفراغ الطباعى، ولذلك فإن المخطوطين

اللذين كتبا عن إملاء واحد لا يمكن أن يخرجا متطابقين، ولذلك فإنه يجب عمل فهرس أبجدى لكل من هذين المخطوطين.

ويذكر المؤلف ان عملية الفهرسة كانت تتم قديما بالنسبة لهذه المخطوطات عن طريق الحرف الاول فقط (أو الصوت الأول) للكلمة المراد فهرستها.

ثم يتطرق المؤلف بعد ذلك إلى موضوع ما بعد فن الطباعة، وقد قصد بذلك عمليات التحول الالكترونى للتعبير اللفظى، موضحا أن الوسائل الالكترونية لا تقضى على الكتب المطبوعة، بل إنها فى الحقيقة تساعد على إنتاج عدد أكبر منها.

كما أن هذا التحول الالكترونى للكلمة من الطباعة إلى استخدام تلك الوسائل والتقنيات الحديثة مثل التليفون والراديو والتليفزيون وأشرطة التسجيل قد ساعد على تحول الكلمة المطبوعة مرة أخرى إلى الشفاهية، ولكنها ليست (شفاهية أولية) بل هى (شفاهية ثانوية) تعتمد على العقلية الجماعية المستقبلة لم يتم بثه من خلال تلك الوسائل التكنولوچية الحديثة.

أما الفصل السادس فقد تناول فيه المؤلف أهمية السرد للقصص الشفاهى وعلاقته بالذاكرة، وكذلك تأثير التقدم التكنولوچى على ذلك القصص الذى تطور شكله على مر العصور منذ أن كان يعتمد على الشفاهية الأولية إلى أن وصل إلى الشفاهيةالثانوية.

وقد أختتم الكتاب بالفصل السابع الذى جاء بعنوان «النظرية النقدية المعاصرة فى ضوء التحول الشفاهى الكتابى»، حيث تناول فيه المؤلف عرضا سريعاً ووافياً لتلك الدراسات المستمدة من موضوع الشفاهية والكتابية والعلاقة بينهما متعرضاً فى ذلك الفصل إلى المؤشرات المتباينة مثل وسائل الاعلام، وتاريخ الأدب، وغير ذلك من المؤشرات التى غيرت من شكل الكلمة عبر الأزمان المختلفة حتى العصر الحديث.